يوميات تبحث عن عنوان

بقلم محمد عبد الله الشفيقي

مصارعة الثيران . برشلونة . أغسطس ١٩٦٢ .

اليوم الاحد ، والساعة قد دقت دقاتها الخمس المسائية وهمت بالدقات الست ، وانا في طريقي الى حلبة مصارعة الثيران ، وسائق التاكسي يعرف الطريق جيدا . انه يقلني الان مثلما اقل الافا غيري كل يوم احد وكل يوم خميس . والسائق يسرع الخطى دون ان اقول له: اسرع الخطى ـ لانه يعرف انني تأخرت ، وان اول ثور سيلقى حتفه بعد السادسة بقليل ، وانموسيقى الافتتاح تعزففي الساعة السادسةمساء.

الميدان مكتظ بالناس والسيارات التي أفرغت حمولتها البشرية ووقفت تنتظر خروجهم بعد ساعات ، وانا آخذ طريقي الى داخل الحلبة وابرز تذكرتي. آوه ! تذكرتي في الشمس ، او بعبارة أدق : الشمس في عيني ، تتحداني تماما ، وتتحدى الكاميرا التي امسك بها. الذين يجلسون في الظل دفعوا ثمنا اكبر لتذكرتهم . غير ان الشمس تغرب بعد فترة فلا تبقى الا الظلال في كل مكان . وتتحقق المساواة، ويخلع رواد الاماكن المشمسة الرخيصة قبعاتهم الورقية ، ويتفرجون في أمان .

بعد ساعات عصبية آخرج من حلبة المصارعة ساخطا ، وتظل اعصابي متوترة الى ان ينتصف الليل ،ولا انام بسهولة ، لاني اظل افكر فيما رأيت .

ان البطل في هذه اللعبة الاسبانية ليس الماتادور وانما الثور. والثور يلعب هنا دور بطل المأساة بمفهومها الاغريقي ، انه يواجه قوى معادية ، بل قوى خفية في بعض الاحيان ، ويتقبل اللعبة بمرور الوقت، بالرغم من انه يدفع اليها في البداية دفعا . انه يتقبل اللعبة بمرور الوقت ويشترك فيها ويظل يكافح حتى الموت .

وما زلت الى الان دهشا من الهالة التي ينعم بها مصارع الثيران ومن حديث همنجواي عنه .. بل بدأت اشعر ان لوركا بألغ حين ندب صديقه مصارع الثيران الشهيد في كل هذه القصيدة الطويلة .. حسن.. ربما كان مصارعو الثيران في الماضي اكثر بطولة . لقد صفق جمهور الاسبان للمصارعين الذين رأيناهم حتى كادت أكفه تدمى من التصفيق. معنى هذا انهم ليسوا تافهين !! ولكني مازلت مصرا على ان البطل في هذه اللعبة هو الثور ... وربما شاركه في البطولة ايضا الحصان الاعمى الذي يحمل على ظهره حامل الحربة الطويلة .

ان الماتادور لايظهر الا في لحظات الثور الاخيرة . ويسبق ظهوره مناوشة ومشاكسة من جانب مصارعين اقل درجة ، مصارعين في طريقهم الى مرتبة الماتادور في المستقبل القريب أو البعيد . أي ان الماتادور ـ عندما يهل بطلعته على الجمهور ـ يجد المسرح معدا . ان الثور « في جيبه » الان ، فالثور قد خارت قواه من كثرة مناوشة الصبيان ، ولم يبق الان غير الجولة الاخيرة مع الاسطى !

تعزف الموسيقى ويدفعون بالثور الى الحلبة وهو ممتلىء حيوية ونشاطا ، انه ينطلق الى الحلبة المستديرة الواسعة في انتشاء ، ويبدو انه ظل حبيسا لفترة طويلة ، ولذلك يتلذذ الان بهذه الحرية . من المؤكد انه لايعرف مصيره في هذه اللحظة ، لان من سبقه من الثيران الضحايا لم يبعثوا بعد الموت ويحذروه من ذلك المصير ، هذا ماآلمني ايضا ! ان الثور يدفع الى هذه اللعبة دفعا دون ان يمارس حقه في الاختيار . وانا اعتبر مبدأ الاختيار من حق كل مخلوق ، سواء كان ملكا او صرصورا !

وفي نفس الوقت تجد الصبيان يملأون الحلبة ، ربما وجدت منهم ثلاثة او اربعة او خمسة ... وربما اكثر . ان كل واحد منهم يقف في الركن ، من بعيد ، ويمسك بوشاحه ، ويناوش الثور .. من بعيد .

والغريب ان الثور لاينتبه الى وجود هؤلاء لحظة خروجه من سجنه، حدث هذا بالنسبة لاكثر من ثور خرج امامنا ، كانوا يمرحون ويحركون عضلاتهم ويهزون جلدهم ويشمون الهواء في انتشاء بدائي . وسرني هذا جدا . وكنت انظر الى صبيان الماتادور في شماتة ! ان الثور لايلتفت اليهم ، ولا يعبأ بالوشاح . وليست لديه رغبة في القتال . أحرى بهم ان يتركوه وشأنه !

ويصفر الجمهور ويزوم .. انه يريد ان يرى شيئا .. يريد ان يتحرك الثور ، ولا يعبأ الثور بكل هذا ، ويظل يتمشى في نزق ويحجل بلا مبالاة . واذ ذاك يضطر احد الصبيان الى انقاذ الموقف ودفع الثور الى اللعبة دفعا . انه يغامر ويترك ركنه الامين ويتحرك نحو الثور.

في هذه اللحظة فقط يشعر الثور بوجود قوى معادية . ولا تتمثل هذه القوى المعادية في الانسان الذي يتحرك نحوه ، وانما في هذا الوشاح ذى اللون المثير . انك تشعر طوال اللعبة ان الثور لايتعامل مع الانسان ، وانما مع الوشاح الذي يمسك به الانسان . ومن اجل هذا كان اللاعب ينقذ نفسه في اخر لحظة بحركة بسيطة : انه يبعد الوشاح عن جسده ، واذ ذاك يبتعد الثور بطريقة آلية .

هاهو الثور ينتبه الى وجود الاخرين ، ويحس بالخطر الملوح ، وها هو يندفع نحو المحارب ... آسف : يندفع نحو الوشاح الذي يمسك به المحارب ، واذا بالمحارب يولي الادبار ويختفي وراء سياج خشبي !! ويعود الثور الى وسط الحلبة ويضحك الجمهور !!

وقد عرفنا بعد ذلك ان اصول التمرين تقضي بهذا ، فهؤلاء الصبيان انما يتدربون على المراحل الاولى ، وعليهم ان يناوشوا الثور ، فاذا أحسوا بالخطر فلينجوا بجلدهم .

وبعد ذلك يدخل المحاربون الحقيقيون . لقد انتهت لعبة طلاب المرحلة الثانوية وبدأت لعبة الجامعيين ، تمهيدا لدخول الخريجفي النهاية.

ان الثور يواجه هنا اكثر من محارب . يواجه ، في كثير من الحالات ، اربعة محاربين . وهو يتنقل بينهم حسب الظروف والتساهيل. ويتوقف هذا على المحارب . فهناك محارب كسول يظل منتحيا ركنا امينا في الحلبة ، محارب لايناوش الثور الا من حين لاخر . انه لايحمل للثور ضغينة ، فلماذا يتعب نفسه ؟ غير ان هناك ، في نفس الوقت ، المحارب العنيد الذي يحب الظهور فيما يخيل لي ! انه يحتل المسرح وينحي زملاءه جانبا وينفرد بالثور . وأحيانا يقترب منه الزملاء ولسان حالهم يقول : « دعنا نلعب قليلا ! » ولكنه يرفض ، انه يريد البقاء في الارجوحة لفترة اطول ـ بالرغم من ان البقاء الطويل في الارجوحة يصيب اللاعب بدوار .

وفجأة تحس بان هناك أعداء جددا للثور ، أعداء **ظهروا وقت** انشغالك بالمعركة بين الثور والجامعيين . انك تكتشف **وجود حصان** ضخم غطوا عينيه وأحاطوا جسمه بدروع خفيفة وركبه فارس **مغوار** يمسك باحدى يديه حربة طويلة تصل الى الارض . وفي طرف الحربة سكين غليظ يشكل مع الحربة حرف آ .

وبالصدفة ـ نعم بالصدفة ! ـ يكتشف الثور وجود الحصان وراكب الحصان والحربة حرف آ . واذ يقترب من هذه المظاهرة يضربه الفارس وينغرز حرف الـ آ في عنق الثور . ويظل الثور يقاوم ويظل الفارس يضغط ـ بيد واحدة ! ـ الحربة داخل عنق الثور . وتثور ثائرة الثور فيهاجم الحصان المسكين ويظل يضربه برأسه وقرنيه .

ان الحصان ايضا لم يختر هذه اللعبة بمحض ارادته . لقد دفع الى هذه « الوظيفة » دفعا . اشد مايؤلمني هنا ان الحصان اعمى . لقد غطوا عينيه حتى لايتركوا له حرية التصرف والهرب ان كان يريد الهرب ويفضله على القتال .

ويظل الحصان يقاوم الضربات ويحارب القوى الخفية بالنسبة له. واحس بان في المأساة الاغريقية التي أشهدها بطلين ، بطلين يصارعان قوى خفية مجهولة . الذي يؤلمني اكثر ان الانسان أوقع العداوة بين حيوانين . ان الانسان هنا يفرض هذه العداوة بالقوة .

في احدى المرات جن جنون الثور وضاق بحرف الـ آ المنغرز في عنقه الغليظة فأخذ يدفع الحصان الى السياج الخشبي ويضرب بطنه في الحائط مرات ومرات . في النهاية يخرج حرف الـ آ مثخنا بجراحه. ويبتعد الثور في اهتياج ، والدماء تنزف منه..لاول مرة في هذه المعركة.

تسقط قطرات الدماء على ارض الحلبة ، تتجمد قطرات الدماء مختلطة بتراب الحلبة .

يعود الثور الى المحاربين الجامعيين الذين يتمادون في مناوشته . ان براعة المحارب هنا تتركز في مدى تعريض نفسه للخطر . المحارب الكسول لايعرض نفسه للخطر ، ويستطيع ان يطمئن الى انه سيموت في فراشه في يوم من الايام ، بين زوجه واولاده وربما أمه . اما المحارب الجسور « الذي يعمل بحق اللقمة » التي يقدمها له مدير الحلبة فيعرض نفسه للخطر . وأحب ان أؤكد هنا انه يعرض نفسه للخطر بمحض ارادته ! انه يقرب الوشاح من صدره ، ويهجم الثور على الوشاح ، يهجم الثور على صدر المحارب ، وفي اخر لحظة ـ بعد ان يقف شعر رأس الجمهور ـ يبعد المحارب الوشاح عن صدره ، ويبتعد الثور . وينتفس الجمهور الصعداء ، ويصفق بحماس .

يزداد تصفيق الجمهور للمحارب الذي يحارب باناقة . ان هناك صلة وثيقة بين الطريقة التي يحارب بها والرقصات الاسبانية الاصيلة التي شهدتها في الملهى ليلة امس . نفس الوقفة الابية ، نفس القوام الفارع النحيل ، نفس الكتفين .

انني حين استعرض اللعبة كلها ، من لحظة دخول الثور حيا حتى خروجه مجندلا ، اجد ان اخطر لعبة هي اللعبة التي يلعبها حامل الحراب القصيرة المزركشة ! نعم .. حامل الحراب القصيرة المزركشة ! وقد قالوا لي ايضا ان حاملها يلي الماتادور في المرتبة مباشرة .

انه يدخل فجأة ايضا . « آوه ... ان الخطر لايقع دائما الا فجأة.. ومتى كان الخطر يدق أجراسه قبل الكارثة بوقت كاف ؟! » ـ حاملا حربتين قصيرتين تتدلى منهما اوراق ملونة ... جميلة ! وفجأة يجري نحو الثور ، بلا وشاح ، يجري وقد أمسك بكل حربة في يد ، يجري نحو الثور ويجري نحوه الثور ، ويلتقيان فجأة في منتصف الطريق . يلتقيان ورأس الثور وقرونه تكاد تبقر بطن هذا الانسان الجريء ، حامل الحراب القصيرة المزركشة . غير ان حامل الحراب يسددها بقوة نحو رقبة الثور ويغرزها في قفاه . وكرد فعل يرتفع رأس الثور الى الوراء في ألم جنوني . وبذلك تبتعد رأس الثور وقرونه عن بطن هذا الانسان الجريء ، حامل الحراب المزركشة !!

اذا كان قويا بارعا فان الحربتين تنغرزان في رقبة الثور ولا تبرحانه وتظلان تتأرجحان في عذاب جنوني . اما اذا خانته شجاعته في اخر لحظة فانه يغرز الحربتين في ضعف ووهن وعجلة ، ويجري . وتقع الحربتان . ويجري الثور .

الحربتان المزركشتان تتعلقان في قفا الثور وتتأرجحان في عناد وحشي . انها اللحظة التي يجن فيها جنون الثور . انها اللحظة التي يحارب فيها قوى خفية بالفعل . آه .. لو رأيت ياقارئي شهقة الالم المرسومة على فم الثور لحظة دخول الحربتين في عنقه . يجن جنونه لانه لايستطيع ان يراهما . ويظل يرفع رأسه الى الوراء ، يريد ان يحك عنقه في شيء ، يريد ان يطرد هذا العذاب الملح .

تسقط قطرات الدماء على ارض الحلبة . تتجمد قطرات الدماء المختلطة بتراب الحلبة .

لاتكفي حربتان مزركشتان لرقبة الثور الغليظة . يجيء اخر ، او نفس الرجل ، بحربتين جديدتين ، ويغرزهما ـ بحنق ـ في الرقبة الغليظة .« أوه ... هذا الدم لاأريد ان اراه » . قالها لوركا عن دم صديقه ، ولكني هنا أرثي الثور !

هذا الدم لااريد ان أراه . لا اريد ايضا ان ارى شهقة العذاب المرتسمة على فم الثور المفتوح . يجري الثور هنا وهناك ، يهرول في جنون . ويلوحون له بالوشاح الناري . وفي هذه اللحظات يحارب بضراوة بعد ان كان يحارب بتعقل وبشيء من خمول . لقد اصبح الثور خطيرا لان هناك من أساء اليه أبلغ اساءة .

تمضي الدقائق ويشتد القتال وتتعالى صيحات الاستحسان او الاستهجان من الجماهير . تمضي الدقائق واذا بست حراب مزركشة ، او ثماني ، تتأرجح في عنق الثور !!! سيظل هذا المشهد ، هذا المشهد بالذات سيظل يطاردني : الثور يجري والحراب ألست تتأرجح من عنقه وجذورها ثابتة في لحمه ، والدم الحار ينزف منه ويتناثر في سخاء على ارض الحلبة . سيظل هذا المشهد يطاردني لانه يجسد العذاب حين يطارد مخلوقا . انك تتعذب في الحياة من حين لاخر . اما ان يصاحبك العذاب كظلك !! اما ان تظل الحراب متجذرة في عنق الثور !!! ان صورة استشهاد المسيح تجسد أقسى لحظات العذاب . لانه قبل استشهاده يظل يجر صليبه الثقيل ويحمل الشوك فوق رأسه . أقسى صور العذاب أن يصاحبك عذابك ويتشبث بك مثلما تشبث الصليب ، وتاج الشوك ، بالمسيح .

وأستيقظ من الكابوس على صوت تصفيق حاد يهز الحلبة هزا ... أخيرا ظهر الماتادور . انه يظهر يحف به مايشبه الموكب . ويلوح بقبعته السوداء التي تشبه قاربا أسطوريا ، ثم يلقي بها لاخرن ، ويبدأ لعبته .

انه يحارب باناقة ، ويواجه الثور في اوضاع راقصة ، ويحمل وشاحا أحمره ناري ، مما يميزه عن وشاح الصبيان والجامعيين . ويتم اللقاء بين الاثنين ، ويكون الثور قد خارت قواه ، ولكنه يحارب في عناد، ويدافع دفاع المستميت . وفجأة تكتشف وجود سيف انيق لامع تحت الوشاح ، انه السيف الذي سيضع خاتمة هذا الثور .

في بعض الاحيان يهم الماتادور بقتل الثور غير ان الجمهور يطالبه بالاستمرار في اللعب ، بالمضي في هذا العذاب . يظل الثور الجريح يحارب ويظل الماتادور يعرض نفسه للخطر ولكن بمحض ارادته . في احدى المرات نزف الدم من أحد اصابعه ، وسرعان ماأحضروا القطن النظيف والدواء ، وضمدوا الجراح .

الثور لايجد من يضمد جراحه .

الموت وحده هو الذي سيضمد الجراح .

يتوتر الجو ويتكهرب ، وتحس بان الثور يعيش لحظاته الاخيرة : ان الماتادور يتفقد السيف ويصلح من وضعه ويهتم بالضحية اهتماما بالغا. فجأة يبرز السيف من تحت الوشاح الناري مثلما تبرز حية رقطاء من تحت صخرة . السيف لامع رشيق . السيف ينغرز في نافوخ الثور حتى مقبضه . ينغرز السيف حتى مقبضه .

يموت الثور فجأة ... بلا مقدمات . في احدى المرات استنكر الثور هذه الميتة فضرب الارض برأسه ، ضربها في غيظ .. ومات طبعا.

يتكاثر حوله اناس عديدون : منهم من ينتزع الحراب ، ومنهم من ينتزع السيف . ونفر من الناس يلبس معاطف بيضاء ويشبه « التومرجية » يستخدم مايشبه المبضع وينتزع من جلد الثور شيئا .

تعزف الموسيقى في حبور وسعادة ونشوة . ويسير موكب الماتادور. يدور بالحلبة . الماتادور ووراءه مساعدوه . ويتعالى هتاف الناس . وصياحهم . وتصفيقهم . والماتادور يرد على تحيتهم في عذوبة

أوه ... نسيت ان اصف خروج الثور : تدخل مجموعة من الجياد في صفين ، تشبه في نظامها مجموعة الجياد التي تجر مركبة الموتى . يشدون الثور ـ وهو على الارض ـ الى هذا الموكب . وتعود القافلة ادراجها وهي تجري في جنون ، والحوذي يلوح بسوطه ، والثور يتدحرج على الارض في هوان ، وأطرافه مرفوعة نحو الهواء .

يختفي الموكب ... تتكرر اللعبة ... والمأساة .

ثم تغرب الشمس ، ونتدافع نحو الباب . وأعود الى باخرتنا في عصبية ، ولا انام بسهولة .

محمد عبد الله الشفقي